الأمة الإسلامية.. أمة التطوع

عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال -صلى الله عليه وسلم-:

(إن الله تعالى يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد) (1)

الأمة الإسلامية أمة التطوع في كل مجال، وبالتطوع حققت كل المنجزات، وبالتطوع انتشر هذا الدين في ربوع الدنيا، وبالتطوع شيدت أعظم حضارة عرفها التاريخ في قيمها ومفاهيمها ونظرتها للكون والحياة، وبالتطوع تحققت للإنسان على أيدي المسلمين كرامته المفقودة، وبالتطوع قضى المسلمون على الثالوث المدمر للإنسانية «الفقر والمرض والجهل» حتى عادت الصدقات إلى بيت المال في القرن الأول من بزوغ

فجر الإسلام لأنها لم تجد من يقبلها أو يحتاجها.

وبالتطوع تحول الناس كلهم إلى قطرات غيث وسواعد بناء لحضارة أشرقت شمسها وتفيء العالم ظلالها لما يزيد عن الألف عام، في زمن كانت أوربا غارقة في التخلف والجهل، بل وتمزقها الصراعات على المطامع المادية وإقطاعات الأراضي. وعندما كانت روح التطوع سائدة في المجتمع المسلم لم يعرف كثيرا من المشكلات التي ظهرت في هذا الزمان مثل البطالة والأمية والمخدرات وجنوح الأحداث وتلوث البيئة وغيرها.

قال تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة 261] إن الدستور لا يبدأ بالفرض والتكليف، إنما يبدأ بالحض والتأليف .. إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله .. إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة: صورة الزرع. هبة الأرض أو هبة ا. الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره. يعرض هذه الصورة الموحية مثلا للذين ينفقون أموالهم في سبيل ا .. وفي موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء. إنه لا يعطي بل يأخذ، وإنه لا ينقص بل يزداد .. وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها. تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزرع والحصيلة. إن ا يضاعف لمن يشاء. يضاعف بلا عدة ولا حساب. يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده , ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها (2)

قال -صلى ا عليه وسلم-:

- (تصدقوا قبل أن لا تصدقوا، تصدق رجل من ديناره، تصدق رجل من درهمه، تصدق رجل من بره، تصدق رجل من تمره من شعيره، لا تحقرن شيئا من الصدقة ولو بشق تمرة) (3)

- (ما يخرج رجل شيئا من الصدقة حتى يفك عنها لحيي سبعين شيطانا) (4)

- (صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة تطفي غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر) (5) - (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول) (6)

- (من منح منحة ورق أو منحة لبن أو أهدى زقاقا فهو كعتق نسمة) (7)

وقال رجل للنبي -صلى الله عليه وسلم- يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: (أن تصدق وأنت صحيح حريص، تأمل الغنى، وتخشى الفقر، ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان) (8)

قال المناوي: (إن اللّه يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه) كناية عن حسن قبولها، لأن الشيء المرضي يتلقى باليمين عادة، وقيل ذكر اليمين لأنها عرفاً لما عز، والشمال لما هان، واللّه تعالى منزه عن الجارحة (فيربيها لأحدكم) يعني يضعف أجرها أي يزيد في كميه عينها فيكون أثقل في الميزان (كما يربي أحدكم) تمثيل لزيادة التفهيم (مهره) صغير الخيل، وفي رواية فلوه، وخصه بضرب المثل لأنه يزيد زيادة بينة، قال في الكشف: هذا مثل ضرب لكون أصغر صغير يصير بالتربية أكبر كبير. (9)

ومن فضائل الصدقة:

أنها تطفىء غضب الله سبحانه وتعالى لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (صدقة السر تطفىء غضب الرب) (10)

والصدقة تمحو الخطيئة، وتذهب نارها لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) (11)

كما أنها وقاية من النار لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (اتقوا النار، ولو بشق تمرة) (12)

والمتصدق في ظل صدقته يوم القيامة لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (كل امرئ في ظل صدقته، حتى يقضى بين الناس) (13) قال يزيد " فكان أبو مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة أو بصلة ". وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (... رجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) (14)

وفي الصدقة دواء للأمراض البدنية لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (داووا مرضاكم بالصدقة) (15) يقول ابن شقيق " سمعت ابن المبارك وسأله رجل: عن قرحةٍ خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع بهم، فقال: اذهب فاحفر بئراً في مكان حاجة إلى الماء، فإني أرجو أن ينبع هناك عين ويمسك عنك الدم، ففعل الرجل فبرأ "

كما أن الصدقة فيها دواء للأمراض القلبية لقوله -صلى الله عليه وسلم- لمن شكا إليه قسوة قلبه: (إذا

أردت يلين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم) (16)

وبالصدقة يدفع الله تعالى أنواعاً من البلاء، كما في وصية يحيى عليه السلام لبني إسرائيل: (وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفتدي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم) (17) فالصدقة لها تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجرٍ أو ظالمٍ بل من كافر فإن الله تعالى يدفع بها أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض مقرون به لأنهم قد جربوه.

ولا يصل العبد لحقيقة البر إلا بالصدقة كما جاء في قوله تعالى: { لن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ } [آل عمران:92]

كما أن المنفق يدعو له الملك كل يوم بخلاف الممسك، وفي ذلك يقول -صلى الله عليه وسلم-: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً) (18)

بل إن الله يضاعف للمتصدق أجره كما في قوله عز وجل: { إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [الحديد 18]. وقوله سبحانه: { مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة 245]

الهوامش

(1) [صحيح] 1902 في صحيح الجامع السيوطي / الألباني (2) في ظلال القرآن سيد قطب ج 1 ص 306 (3) [صحيح] 1354 صحيح الجامع (4) [صحيح] 5814 صحيح الجامع (5) صحيح الترغيب والترهيب المنذري / الألباني 890 (6) البخاري 5356 (7) [صحيح] 6559 صحيح الجامع (8) البخاري 2748 (9) فيض القدير للمناوي 2/125 بتصرف (10) [صحيح] 3759 صحيح الجامع (11) [صحيح] 5136 صحيح الجامع (12) [صحيح] 114 صحيح الجامع (13) [صحيح] 4510 صحيح الجامع (14) البخاري 6806 (15) [حسن] 3358 صحيح الجامع (16) [حسن] 1410 صحيح الجامع (17) [صحيح] 1724 صحيح الجامع (18) متفق عليه